

الإنسان والمكان : تفاعلات متبادلة

أ.د سامي مهدي العزاوي

مدير مركز ابحاث الطفولة والأمومة

تقديم :-

يركز علم النفس البيئي ، باعتباره احد الفروع الحديثة لعلم النفس على دراسة السلوك البشري في إطاره البيئي ، وهو المكان الذي نعيش به ، ونستجيب لمختلف التنبهات من خلاله .أذ تختلف استجابات الإنسان للمنبهات تبعاً للمكان الذي يحيط به . فالاستجابات تختلف ما بين المدن والريف ،المناطق الساحلية عن المناطق الصحراوية ،الأماكن المكتظة بالسكان عن المناطق المنعزلةالخ
إن العامل المشترك بين كل هذه الاستجابات تنفق في أن البشر والطبيعة المتمثلة بالمكان أقاما فيما بينهما علاقة تفاعلية متبادلة ناسفين للنظرية القائلة بان ((الطبيعة هيئات سلبيا" كمسرح لانجازات البشر)) (سيمونز ، 1997 ص 15))

أن هذه الحقائق يؤكد عليها مختلف علماء التخطيط الحضري والإقليمي الذين تحولوا من المعالجات النظرية لعلاقة الإنسان مع المكان إلى المداخل التطبيقية ((تكنولوجيا بشرية ومعمارية)) فتحول التخطيط من هندسة معمارية إلى هندسة اجتماعية ، حيث أصبحت الأهداف اجتماعية ، ووسائل تحقيقها اقتصادية وعمرانية (العمر ، 2..8 ص 2) فالتداخل بين غايات الإنسان وأهدافه السامية في الحياة تحدده عوامل المكان ، وما تتوافر في هـ من إمكانيات اقتصادية واجتماعية وطبيعية . ومن خلال إدراكنا للعلاقة التفاعلية للسلوك البشري مع المكان الذي يحتويه ، نحاول تسليط الضوء في هذه الورقة المتواضعة على :-

- خصوصية المكان .

- حدود المكان بيننا وبين الآخرين .

- الآثار النفسية للازدحام والضوضاء .
- مكان التعلم وانعكاساته على سلوك المتعلم .

خصوصية المكان في المنظور السايكولوجي :-

أن الإجابة عن الآثار السلوكية الفردية والاجتماعية التي يتركها المكان في حياة الإنسان تتطلب إيضاح المفاهيم المتعلقة بالمكان النفسي للفرد والذي يتسم على العموم بالخصوصية ، فحاجة الإنسان لان يبقى على جزء من حياته الخاصة بعيداً عن أذان وعيون الآخرين احتياج بشري يحاول بقدر الإمكان أن يحتفظ به دون تدخل الآخرين . والحاجة للخصوصية لاتعني العزلة المكانية، والخصوصية أربع حالات فصلها وستن Westin نقلاً عن ((إبراهيم ، 1997 ص 21 .)) على النحو الآتي :-

1- الوحدة أو الانفراد في مكان ما بعيداً عن أنظار الآخرين :-

وهذه الحالة الخاصة نحتاجها عند التوجه لسرير النوم أو الذهاب إلى حجرة الدراسة ، أو الكتابة ، أو الاستلقاء الحر . إذ غالباً ما يفضل الفرد من الآخرين عدم كسر وحدته

2- المكان العائلي :-

وهذا المكان يكون غالباً لاثنين أو أكثر ويتقاسمون العيش في مكان واحد ، كالمنزل ، أو السيارة ، أو الحديقة العامة لمناقشة أمور لاعلاقة للآخرين بها .

3- المجهولية المكانية :-

وهي حالة من الخصوصية يلتجأ لها كبار الفنانين والرياضيين والسياسيين ، حينما يحاولون اختيار أماكن لايعرفهم فيها احد، كي يحققوا نوعاً ما من خصوصيتهم التي غالباً ما يفقدوها بسبب تدخل الآخرين في متابعة كل حركاتهم وتصرفاتهم إلى حد حبس أنفاسهم .

4- مكان لمراجعة النفس :-

وغالباً ما يحتاج رجال السياسة والإدارة الى أماكن منعزلة عن الآخرين ، تمنحهم الفرصة لمراجعة النفس عند اتخاذ قرارات حاسمة ، من خلال فحص المعطيات المتوفرة لديهم قبل اتخاذ تلك القرارات .

الحدود المكانية بيننا وبين الآخرين

كثيراً ما يتساءل الناس عن مقدار المسافة المكانية بين صديقان عزيزان يتبادلان الكلام ، أو بين الطالب وأستاذه ، أو بين شخصين غريبين ، أو بين شخصين من جنسين مختلفين والناس فيما يرى هول Hall نقلاً " عن ((إبراهيم ، مصدر سابق ((يستخدمون المسافة المكانية بأربع طرق عند احتكاكهم بالآخرين وهي :-

1- المسافة الوثيقة :-

والتي تتضمن اللمس البدني والاحتكاك ، وهي علامة على وجود علاقات صداقة حميمة بينهما ومن أمثلتها ، وضع الذراعين حول كتف الآخر ، أو الرقص المشترك .

2- المسافة الشخصية :-

وهي مسافة غير منظورة يضعها الفرد بينه وبين الآخرين والتي تصل ما بين قدمين إلى أربعة تبعا" للحضارة التي يعيش فيها الفرد .

3- المسافة الاجتماعية :-

وهي المسافة التي تفصل بيننا وبين الآخرين عند الاندماج في نشاطات اجتماعية مختلفة . ففي المناقشات الاجتماعية يجلس الناس أو يقفون متقاربين بطريقة تمكنهم من الإنصات لما يقوله كل منهم .

4- المسافة العامة الرسمية :-

وهي المسافة الرسمية التي تحدد علاقة الأطراف المتباينة في التفاعل الاجتماعي كالمسافة بين الطلاب والأستاذ في المحاضرة ، أو الخطيب والجمهور في دور العبادة والأماكن العامة.

الآثار النفسية للازدحام والضوضاء

أن اكتظاظ الأماكن بالإفراد وما ينتج عنه من ازدحام، وضوضاء ، وتلوث للجو أحيانا" بسبب التدخين أو التنفس وما يصاحبه من انتقال فيروسات عن الأشخاص المرضى في الجو يؤدي في كثير من الأحيان إلى العديد من المشكلات الاجتماعية والصحية، كنتاج طبيعي للمدينة الحديثة التي جعلت الناس ينتقلون من أماكنهم الطبيعية والتزاحم في أماكن ضيقة داخل المدن .

وغالبا" ما يستجيب الأفراد للازدحام تبعا" لطبيعة الموقف الناتج عنه ، فنوع الأشخاص المزدهمين ((أصدقاء ، غرباء)) وطبيعة النشاط السائد في موقف الازدحام ((مشاهدة مسرحية ، الانتظار في محطة القطارات)) وكذلك الخبرة السابقة في المواقف المزدهمة فكثير من الناس يتقبلون الازدحام في الملاعب نتيجة لخبراتهم السابقة بالتفاعل الاجتماعي الناتج عن تشجيع فريق يحبونه ويدعمونه اجتماعيا" بينما يتذمرون وتظهر عليهم مظاهر السلوك العدواني حين الانتظار لمدة طويلة للحصول على تأشيره سفر لدخول بلد ما .

مكان التعلم وانعكاساته على سلوك المتعلم

تؤثر البيئة ((المكان)) التي تتم بها عملية التعليم والتعلم تأثيرا" مباشرا" وغير مباشر على سلوك الطلبة . فقد كشفت دراسة تحليلية عميقة أجريت على حجم الصف ، عن وجود علاقة دالة بين حجم الصف ومواقف كل من المعلم والطالب . وان تأثير المعلم المرغوب فيه مرتبط بصفوف صغيرة الحجم في تأثيره على مفهوم الذاتي ، وحب المدرسة والمشاركة الصفية وكذلك تفريد التعليم ، وإيجاد مناخ صفى أفضل .

وأشارت دراسة أخرى إلى إن سلوك الطالب ومواقف الانجاز أو عدمه تتأثر بمتغيرات البيئة الصفية ، مثل طريقة ترتيب المقاعد وازدحامها . وان التعديلات التي أدخلت على غرفة الصف أظهرت تغيراً في سلوك الطلاب المكاني . وازدادت من التفاعل مع المواد الدراسية وقللت من فرص المقاطعة في الكلام . وزادت من نسبة التساؤلات المهمة . ((قطامي ، 1992 ص 271)) .

وتشير الملاحظة اليومية لسلوك الطلبة بمختلف مستوياتهم إلى ازدياد السلوك العدوانى، فيما يتعلق بتحطيم الأثاث، واستخدام عبارات نابية في البيئات التعليمية المزدهمة في الطلاب .

ما العمل ؟

مما سبق يتضح أن المسافة المكانية أو الشخصية تتأثر بعوامل متعددة منها :
العمر ، الجنس ، المركز الاجتماعى ، الحضارة والديانة . فالاطفال مثلاً " نسمح لهم بالاقتراب الوثيق منا أكثر من الكبار أو الأفراد من الجنس الآخر ، وكذلك الغرباء .
والحضارة العربية الإسلامية تسمح للأفراد بالاحتكاك والتقبل فيما بينهم كتعبير وجداني عن التفاعل الأصمى بين المسلمين ، في حين لاتحبذ الكثير من الحضارات الأخرى مثل هذا السلوك ولكي نتوصل إلى أفضل شكل لتحديد العلاقة المكانية بين الأفراد فإننا نحتاج إلى :-

1- ضرورة ضبط التغير الاجتماعى والتكنولوجى ، بحيث نقلل من نتائجه السلبية على الناس .

2- أشراك متخصصين في التخطيط الحضارى من الجغرافيين والمهندسين المعماريين ، وعلماء الاجتماع والتربية في وضع التصميم المعماري للمدن الحديثة كي توظف توظيفاً ايجابياً " لخدمة الإنسان من حيث بناءه الصحى وعلاقته بالآخرين وفعاليتة .

3- أيلاء مسألة المسافة الشخصية والاجتماعية والرسمية أهمية خاصة في تكوين شخصية الطالب الجامعي .

المصادر

- أيان ج . سيمونز (1997) ((البيئة والإنسان عبر العصور)) ترجمة السيد محمد عثمان . عالم المعرفة الكويت.
- مضر خليل العمر (8..2) ((البحث المكاني : بداياته واتجاهاته)) منشورات وحدة الأبحاث المكانية ، الورقة الأولى .
- نايفة قطامي (1993)((أساسيات علم النفس المدرسي)) دار الشروق عمان
- عبد الستار ابراهيم (1997)((اسس علم النفس)) دار المريخ الرياض.

الانسان والمكان

أ.د. ليث كريم حمد

رئيس قسم الدراسات العليا

كلية التربية الاساسية

المقدمة :-

إن موضوع علاقة الانسان بالمكان كان مثار جدل كثير واهتمام كبير بين المفكرين والفلاسفة منذ القدم . لا بل ان المكان الهم الشعراء والادباء وربما صار إطارا لعلم العلماء وفقه الفقهاء. الا ان معالجة هذه العلاقة والبحث فيها في اطار فلسفي تتبناه مجموعة من المفكرين بما يشكل فرقا او مدارس فلسفية يعود الى القرن التاسع عشر الميلادي ، وتبلورت في هذا الاطار فلسفات وايدولوجيات توجه طبيعة العلاقة بين الانسان والمكان في محاوله جادة لرسم حدود هذه العلاقة وخطوطها العامة . فغذا اردنا مثلا ان نجري بحثا في الآداب والاخلاقيات فإن اول ما يتبادر الى الی اذهاننا اخلاقيات المكان وآدابه . أو بحثا في المكان وعاداته فلا بد اولاً ان نحدد اي سكان في أي مكان .

والكون كله مكان والارض مكان والقارة مكان والبيت الذي نعيش فيه مكان وعلى صغره فيه مكان محترم وآخر ليس كذلك . كاترينا القاتل ة كانت في مكان وانفلونزا الطيور تنتقل من مكان الى مكان والذهب والنفط والمياه والجراد والبعض والحرب والسلام كل في مكان .

فهل ان الانسان اختار المكان أم ان المكان يرسم صورة الانسان ؟

اولا : فلسفة الانسان والمكان :-

. الفلسفة الحتمية (Desterninism) :-

الفكر الحتمي فلسفة واضحة المعاني تبلور على يد الالمانى (فريدريك راتزل) واتبه بعض الجغرافيين خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ويبدو ان الجغرافيين اول من تبناوا الفلسفة الحتمية في تفسير علاقة الانسان بالمكان الا ان الحتمية ظهرت في معظم العلوم الانسانية وفحوى هذه الفلسفة كائنسلبى امام البيئة وهي تؤثر فيه تأثيرا كبيرا وان دوره الاذعان لما تمليه عليه الطبيعه في المكان والزمان ويرى اصحاب هذه الفلسفة ان البيئة تحدد نوع تفكير الانسان واليك هذا النموذج من الاراء والمقولات الحتمية .

(أعطني خريطة دولة ما ، ومعلومات وافيه عن موقعها ومائها ومناخها ، ومظاهر الطبيعة الاخرى بامكاني في ضوء ذلك ان احدد لك اي نوع من الانسان يمكن ان يعيش في هذه الدول ة واي دور يمكن ان تمثله هذه الدول ة في التاريخ) .

وآراء اخرى حاولت تفسير التباين بين الناس وخصائصهم انما يرجع الى قوة الطبيعة . وكثر نقاد هذه الفلسفة ومن أكبر المآخذ عليها انها الغت ارادة الانسان وجعلته صنيعه المكان .

. الفلسفة الامكانية (Possibilism) :-

اول من اطلق هذا المفهوم (لوسيان فيفر) والمقصود بالامكانية ان للانسان حرية الاختيار فيما تقدمه له البيئة من خيارات مختلفه على وفق تباين البيئات مناخيا وتضاريسيا وانه لا يوجد شيء محتم بل ان أمام الانسان خيارات وبدائل توفرها الطبيعة بما يتناسب مع طموحاته وقدراته وبالتالي فالعلاقة بين الانسان والمكان تبرزها مصالح الانسان وهذا عكس الحال في الفلسفة الحتمية فالانسان هو الذي يحدد طرق وطبيعة استغلال البيئة وقد دعم هذه النظرية ما تحقق من انجازات

واسعة في مجالات الصناعة والتقنيات وامكانيات السيطرة على البيئة واستثمار مواردها .

. الفلسفة الاحتمالية (Probabilism) :-

وهذه الفلسفة حاولت التوفيق بين الحتمية والامكانية ومن اشهر دعائها (جريفت تايلور 9 وقد وضع دور البيئة في قوله ان البيئة تسمح لك بالاسراع حينما والتريث حينما والتوقف حينما آخر وهو الذي قال بحتمية الخطوه خطوه وان استغلال البيئة من قبل الانسان بما تسمح به البيئة فمنها ما يوفر الكثير ومنها لا يعطي الا القليل . والانسان لا يستطيع تغيير البيئة تغييرا جوهريا بل ان فعله لا يعدو كونه تعديلا او تحسينا بما يخدم مصلحته . ويرى البعض ان هذه الفلسفة حافظت على روح الفلسفة الحتمية وفحواها .

. الفلسفة الندية (Cofrontation) :-

ويرى اصحاب هذا المنظور ان الانسان والبيئة في صراع جاد لاقرار صيغة التعايش في الزمان والمكان ومثلما ان للانسان وسائله واساليبه في تطويع البيئة وتوجيهها فهي الاخرى ايضا لها القدرة على مواجهة التحديات والحد من تدخلات الانسان وتحدياته لها لذلك يرى هؤلاء ان هناك موازنة بين فعل الانسان ومقاومة الطبيعة وذلك من اجل وضع حد للتعايش بين الطرفين في الزمان والمكان ثم يبدا تحدي آخر من الانسان ومقاومة من الطبيعة وصولا الى مستوى من التعايش وهكذا .

. فلسفة جايا (Gaia) :-

وهذه فلسفة السبعينيات من القرن الماضي بعد وضوح الكثير عن كوكب الارض الذي ينبض بالحياة في اجواء الفضاء المعتمه بكل مكوناته التي يبدو معها وكأنما هو كائن حي واحد وقدرة الاحياء فيه على صنع هذه البيئة اللازمه للحياة ويشير (لفلوك) الى ان (جايا) كيان حي معقد يشمل على المجموع الحيوي بحيث يتشكل

من الكل نظام في التفاعلات ذاتية التنظيم هدفه تحقيق البيئة الفيزيائية والكيميائية الفضلى للحياة على الارض ويشكل الانسان اهم نوع حي في هذا النظام المعقد ويعد القوة الاكبر لتقرير الاتزان فيه .

ثانيا : المكان أو مجال الحياة (Life space) :-

في اللغة - الموضع والمستقر نسبة الى من هم فيه ولا يكون مكانا بالنسبة لنا حتى ندركه بالعقل او بالحواس وعليه فادراك المكان بالعقل على قدر وسعه وبالحواس على قوتها او ضعفها . وللمكان عناصر مادية لها معنى تأخذ معناها من الوظيفة المتعارف عليها لهذا المكان او الوقائع والحوادث التي حدثت فيه . فبالنسبة للفرد : فإن نشاطه سواء أكان غلاما ام فكرا ام انجازا ينظر اليه على انه تغير في احد ظروف المكان في وحدة زمن محددة فالمكان الذي يحيى فيه الفرد يشمل مجاله الحيوي الذي ينشط فيه وبيئته النفسية كما يدركها ويفهمها . اما بالنسبة الى الجماعة : فالمكان قوامه الجماعة وبيئتها كما تدركها وتفهمها الجماعة وتحديد خصائص اي مكان انما يرتبط بالزمن الذي تم فيه تحديد هذه الخصائص والحقائق الموجودة في لحظة من الزمن ويمكن تمييز ثلاثة مجالات تكون التغيرات فيها ذات اهمية لسيكولوجينا المكان :-

1. مجال الحياة : ونقصد به الحيز الذي نتحرك فيه وننشط فيه وندركه على قدر معين وضحاها أنفا . وهو الانسان وبيئته السيكلوجية كما تتمثل له ومكوناته ونشاطه - حاجاته الان - والدوافع التي تتولد عنها - ثم حالته الانفعالية في هذه اللحظة - وما مدى وضوح الهدف في ذهنه - وما درجة قلقه لتحقيق هذا الهدف - وما نوع المعايير التي يحكم بها النتائج .
2. العمليات المادية والاجتماعية الكثيرة التي لاتؤثر في المكان في تلك اللحظة اي ان المكان يتصف بالنشاط الذي يشغله في هذه اللحظة وقد يكون النشاط الظاهر هو النشاط الاقوى الذي تستجيب له عناصر المكان المادية والاجتماعية .

3. حدود المكان : وبما ان المكان يتكون من عناصر مادية واجتماعية تؤثر في مجاله الحيوي في تلك اللحظة فان عملية الادراك ترتبط ارتباطا وثيقا بالعناصر المادية كما تتأثر بها اعضاء الحس في تلك اللحظة فيكون الفعل او النشاط متناسبا مع عملية الادراك في حدودها المادية الخارجية . فما لا ندركه لا يؤثر في سلوكنا وان كان موجودا وما نتوهم ادراكه يؤثر في سلوكنا وان لم يكن موجودا فحدود المكان ما ندركه في لحظة ما من عناصر مادية واجتماعية ويمكن ان تطلق عليه البيئة البيئية النفسية الاجتماعية.

ان حالة الانسان الفرد كشخص لا تتفصل عن بيئته النفسية فحالة الشخص بعد التشجيع غير حالته بعد التثبيط وحالته في اجواء متسامحة غير حالته في اجواء متشددة والعلاقة الايجابية بين الفرد والآخرين غير العلاقة السلبية والطفل الذي يجلس في حضن امه غير الطفل الذي بين يدي غريب . وتخيل ان طفلا ينمو في عائلة مرفهة متميزة وآخر ينمو في عائلة معدمة مضطهدة .

4. طبيعة العلاقة بين الانسان - المكان - السلوك :-

فالمكان : هو الوسط الموضوعي الخارجي وما فيه من عناصر ومكونات تعمل كمنبهات لنشاط الفرد في لحظة معينة وهي منطقه ادراكيه حركيه تقع على الحدود بين مناطق الشخص الباطنيه والخارجيه ، وهي تفهم من خلال :-

- . الحاجات الداخليه التي توجه النشاط الحركي للفرد فنسميها المنطقه الحركيه .
- . المنطقه المتوسطة وهي تاتي مكونات المكان كمنبهات تنشأ عن تغيرات المكان والمنطقه المتوسطة ذات علاقه بالجهاز الادراكي للشخص .
- . التفاعل بين الانسان والمكان كما يدرك يدرك عناصرها ووظائفها والعلاقة بينها بما يحدد خصائص المكان وهذه الخصائص تكون فيما بعد البيئة النفسية للفرد في تلك اللحظة فإن فهمه وادراكه يختلف من واحد الى آخر على وفق المتغيرات التي ذكرناها آنفا .

أما الإنسان : فهو الشخص بصفاته وخصائصه من (حاجات - قيم - معتقدات - أجهزة حسية وإدراكية - وغيرها) وهي تتفاعل مع بعضها البعض ومع عناصر المكان لتنتج مجال الحياة الراهن .

والشخص يفهم من المكان الذي هو فيه ، واننا قد ندركه من العناصر المكانية في زمن محدد فيأخذ صفات وخصائص المكان فتكون بالنسبة لنا حقائق سيكولوجية ترسم بيئة سيكولوجية تتناسب مع مستوى التوتر الذي تحدثه العلاقة بين الإنسان والمكان .

والإنسان : يأخذ معناه من المكان والمكان يأخذ معناه من الإنسان والمكان اسبق من الإنسان .

استنتاجات وتطبيقات :

سيظل المكان من الموضوعات الرئيسة التي تشغل العالم في القرن الواحد والعشرين وان هناك حقيقة واقعة تتحكم في حياة الإنسان تحكما كاملا إن هناك ثلاثة أنظمة رئيسة لامخرج منها هي النظام الحيوي والنظام الاجتماعي والنظام التقني .

والنظام الحيوي البيولوجي هو منظومة الطبيعة او حيز الحياة ، وان منظومة الطبيعة تتغير من مكان الى آخر في معطياتها على الاقل بما يحدد تواجد الإنسان والمنظومة الاجتماعية الذي بدوره يشكل المنظومة التقنية هذا وان مشكلات المكان تنجم عن فشل التفاعلات بين عناصر الأنظمة الثلاثة او تعارضها وعليه نرى :

1. ان موضوع المكان لم يعد امرا داخليا في حدود معينه فالمكان يتأثر بغيره ويؤثر في غيره خاصة ما يتعلق بالمنظومة التقنية التي تعمل في ذلك المكان .

2. اننا لانعرف كل شيء عن المكان الذي نحن فيه وربما نعرفه اقل مما لانعرفه وان للمكان اجزاء مترابطة كل واحد في ها يكمل الآخر والجه ل لبعض

الاجزاء يجعل من معرفتنا له ناقص ة والمعرفة الناقصة تحول دون التوازن والاستقرار .

3. اينما حل الانسان فهو سيد المكان وان كل الاحياء الاخرى في المنظومة البيولوجية ان لم تكن في خدمته فإنه يحاول ان يتخلص منها وقد حدث الكثير من ذلك منذ نزول الانسان على الارض والى الان وربما انقرضت الكثير من الاحياء شديدة الفائدة بسبب سوء استغلال الانسان لها .

4. وللمكان نفوذ سياسي عندما يتمتع هذا المكان بمميزات وخصائص تؤهله لتقديم المزيد من المعطيات المتفرده التي تفرض تأثيرها على الاماكن الاخرى وكذلك نفوذ ديني او اجتماعي وغيرها .

5. وللمكان دور في التربية والتعليم وان الانسان وبيئته يجب ان ينظر اليها من منطلق ان الانسان بدوره محور النشاط والحياة يوظف المكان ومعطياته لصالحه وان ما في المكان من معطيات ليس لجيل واحد وانما هي امانه يطورها الجيل ثم يهديها للجيل الذي يليه .

6. ومهما كانت الطبيعة فإنها لا ترتقى اطلاقا الى مستوى التقديس او نساوي الانسان بالكائنات الحية الاخرى كما لايجوز ان نعطي الانسان الحق المطلق في سيطره والاستغلال .

7. واستجابة لتطور علوم الطبيعي وعلوم البيئة ظهر على مستوى التربية والتعليم ما يسمى بالتربية السكانية لارتباطها الوثيق بالتنمية الاقتصادية والاجتماعي .

8. وتنبه المربون الى التربية البيئي فنادوا بضروره وضع فلسفة للتربية البيئية او اطار مفاهيمي نظري لها يستند اليه تطوير برامج التربية البيئية وتقويمها .

المراجع

1. كمال دسوقي / دينامية الجماعة في علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي - القاهرة - المطبعة الفنية الحديثة - 1969.
2. محمد سعيد الصياريني / نحو اساس فلسفي للتربية البيئية - مجلة البصائر الاردنية - 1998.
3. قاسم حسين صالح / الانسان من هو - بغداد - دار الشؤون الثقافية العامة - 1986 .
4. حسام آلوسي / الفلسفة والانسان - منشورات دار الحكم - بغداد - 1990 .
5. مكتب اليونسكو الاقليمي / برنامج التربية السكانية - عمان - الشركة الجديدة - منشورات عام 1992 .

" تم ترتيب المراجع بحسب اولوية الاستفادة منها "

جدلية الإنسان - المكان - الزمان

أ.د. مضر خليل عمر

وحدة الأبحاث المكانية

ليس للإنسان في دنياه الفانية إلا المكان والزمان الذي يعيشه ، ومنذ الأزل وهو يجهد نفسه في استيعاب المكان وإدراكه و فهم الزمن و مجرياته . وأثمرت جهوده هذه العلوم جميعا . فالبعض قد ركز على الطبيعة و مكوناتها ، والآخر انصب اهتمامه على الإنسان و نشاطاته ، و منهم من حاول سبر أغوار الإنسان لفهم كنهه . والبعض حلق في أجواء فكرية تتننى عن المكان والزمان قصد فهمهما . وفي جميع هذه كان الإنسان و خدمته هو الهدف المعلن وغير المعلن (فرادا و مجموعات) . فدراسة المكان هدفها الإنسان لأنه يعيش فيه وينشط ، ودراسة الزمن لأنه من نتائج حركة الإنسان والمادة (الطبيعة والكون) وتفاعلهما م.ع بعض . في هذا المقال ، نسلط الضوء على العلاقة الجدلية بين الإنسان و المكان والزمان وما تفتق عنه فكر بعض الرجال الذين شغلته هذه الجدلية ردحا من الزمن ، ومن أماكن مختلفة من الكرة الأرضية . وسأبتعد قدر الإمكان عن كتابات الجغرافيين كي أوضح أن المكان ليس حكرا لهم ، بل انه موضوع اهتم به الجميع كل ضمن تخصصه واهتماماته .

الإنسان و المكان

يشير الأستاذ محمد علي المحمود في مقال له عن جدلية الإنسان والمكان إلى أن عنصر المكان " لا يقتصر على الجغرافيا ، وإنما يشمل الواقعة الاجتماعية ككل " وبهذا فله " أهمية كبرى في سياق تحليل الظواهر الإنسانية ، ذات الطابع العام " . وان عنصر المكان "مشدود إلى حقول معرفية لا حصر لها ، حتى وإن كانت هذه الحقول - من حيث المرجعية التخصصية - تتمحور حول تخصصين اثنين ، يشكلان الدعامة الأساسية لها ، وهما علم النفس الاجتماعي ، وعلم اجتماع المعرفة . " وحسب رأيه فإنه من عالم " هذين التخصصين ، تستمد معظم الرؤى التحليلية - واعية وغير واعية - ألياتها في مقارنة جدلية الإنسان والمكان " . فعلماء الاجتماع يركزون على دور المجتمع (مجموعة من الناس تربطهم روابط و يعيشون في مكان محدد) وفي زمن محدد .

وركز عمر منيب إدلبي على تبادلية التأثير بين الإنسان والمكان ، " إذ يسهم المكان في تشكيل وعي الإنسان بوجوده ، ويطبع فكره و هويته - وقبل ذلك كله فيزيولوجيته - بطابعه ، فيما يسهم الإنسان في إضفاء خصائص إنسانيته على المكان بتبدل صفاته وبنيته ، وأنسنة فضائه ، وهذه العلاقة التأثيرية المتبادلة تتحول بفعل التعود على مر الزمن إلى علاقة حميمة ، يترك هدمها او قمعها آثارا كارثية على الطرفين " .

فشخصية المكان يرسمها الإنسان ، و خصائص الإنسان و سماته تتحدد بنسب متباينة بالمكان . ولا يعني هذا الاعتقاد بالحتم الطبيعي (الجغرافي) ، بل إن التأثير موجود (سلبا وإيجابا) ولكنه ليس العامل الوحيد و الحتمي ، انه يتفاعل مع عوامل أخرى ذاتية وموضوعية في جدلية صارخة أحيانا و هامسة أحيانا كثيرة . فشخصية الموصلية غير شخصية البصري ، والبغدادي غير ابن العمارة . وفي الوقت نفسه فان شخصية الإخوة في البيت الواحد مختلفة (ومتناقضة أحيانا) . فعند الحديث عن التأثير يقصد به الأكثر احتمالا (المنوال في المصطلح الإحصائي) .

ولهذا السبب يقول الإدلبي " ولما كان للمكان حضوره المؤسس والبناء لعلاقات المجتمع بفعل تفاعل الإنسان مع محيطه الجغرافي و أشياءه ، فان للإنسان بالمقابل

دوره في تشكيل القيم الخاصة بهذا المكان عبر مجموعة العلاقات والسلوكيات الإنسانية التي تصبح فيما بعد رموزا دلالية تشكل في مجموعها صفات مكان ما " . وللتوضيح نشير إلى تباين القيم الخاصة بين سكان منطقة الفضل و سكان المنصور مثلا ، وسكان الكرادة وسكان الكريعات في بغداد . وقد رسم المعنيون بالقيم الاجتماعية و تمحوها مكانيًا جزرا حضارية (البعض يسميها ثقافات فرعية) ضمن الحضارة الأم (البغدادية هنا) .

وتفقد نشاطات المجتمع قيمه ، العليا منها على وجه الخصوص ، و تتجدد واقعا بالتراتبية الاجتماعية التي تصنع المكان والمكانة (محمد عي محمود) . والدليل على ذلك تاريخيا يعود إلى دويلات المدن حيث التوزيع الاجتماعي - المكاني لسكانها ، ومدرسة شيكاغو للبيئة الاجتماعية التي قدمت الأدلة الإحصائية على الترتيب الاجتماعي - الاقتصادي - المكاني لسكان المدن الكبيرة . فالإنسان ينظم مكانه ليبرز خصائصه الذاتية والاجتماعية .

كان هذا على المستوى الاجتماعي ، أما على المستوى الفردي (الشخصي) فنجد كتاب السير الذاتية يركزون على المكان وأثره على شخصية المبحوث و أفكاره ونتاجه الأدبي أو العلمي . وفي الأدب فان "الفضاء الجغرافي" والإشارة إليه له أهميته في تشكيل الصورة في ذهن و مخيلة المتلقي للتعرف على خصائص الأمكنة وصفاتها . وعودة إلى عمر منيب الذي يؤكد أن عنصر المكان " لا يمكن النظر إليه من منطلق عزلة عن بقية العناصر السردية الأخرى (الزمن ، الشخصية ، ...) ، ولاسيما عنصر الزمن ، إذ (يستحيل وجود مكان ارضي ، أو غير ارضي لا يتضمن كمية من الزمن وجدت بوجوده واستمرت باستمراره) ، كما أن المكان (لا تتجلى ابرز صفاته الجمالية إلا من خلال الزمان والإنسان)" .

ويعترف محمد شكري بدور المكان في حياته حيث يقول " لي ارتباط كبير جدا بالمكان ، أنا أقدر ما يسمى بجمالية المكان في القصة أو الرواية على الرغم من أنه مذهب كلاسيكي واقعي ولكني مرتبط جدا بالأماكن ، وأحيانا لا أعرف كيف أكتب حتى أكون جالسا في مكان معين " . فعلى الرغم من عدم اعتناقه المذهب

الكلاسيكي إلا انه يقر أهمية المكان له و في كتاباته . أما إدوارد سعيد فقد خرج من المكان ليناور " في أفق البلاغة والفلسفة والسياسة والتاريخ في آن معا ، فهو لا يغادر المكان على مستوى الواقعة ، جغرافيا ، إلا من أجل أن يعود إليه رمزيا ليحتويه ويعلن انتماءه إليه ، وعدم تخليه عنه ، والإمساك به حتى الرمق الأخير" . وعند مراجعة العنوانات الأدبية و الفنية نجد للمكان حضور يلفت النظر ، فعلى سبيل المثال لا الحصر ، المكان في قصص وليد إخلاص ، خارج المكان ، أنا والمكان ، البئر الأول ، فلسفة المكان في الشعر العربي ، فاعلية المكان في بناء القصيدة عند ذي الرمة . وعلى مستوى المسلسلات التلفازية نجد : بنت الحثة ، بين القصرين ، قصر الشوق ، باب الحارة ، أين مكاني والعديد غيرها .

المكان والزمان

لقد شغل موضوعي المكان والزمان الفلاسفة من القديم ، وهم متفقون على إنهما من أشكال المادة ، ولكنهم منشغلون في جدل مفاده : هل هما حقيقيين أم إنهما تجريدان لا يوجدان إلا في وعي الإنسان ؟ ويرى البعض أنه بمجرد الادعاء بوجود الشيء (جسم) نكون قد حددنا مكانا معيناً له ، ولهذا فإن المكان هو ما يتعلق بالاین ، وبالتالي يحدد خاصية معينة لشيء معين كالمادة . ولهذا يخلص عبد الغفور بالريسول إلى القول " فالمكان ليس جسماً ، بل هو الشرط الأساسي لكيان الجسم ، إذ لا يمكننا أن نتصور جسماً ما إذا لم تنطبق عليه شروط مكانية (حجم ، طول ، ارتفاع ...) ومن ثمة نستطيع انطلاقاً من دراسة حالة الجسم أن نفهم أو نستنبط الكثير عن المكان " .

ولا يرتبط المكان بالمادة فقط ، بل يشير الأب روبير الكرملی إلى " إن الدراسة الفلسفية للطبيعة ليست فقط دراسة موضوع مستقل عن الإنسان ، وإنما دراسة العلاقات أو الحوار بين الإنسان والطبيعة التي هي من حوله ، ومن خلال هذا الحوار تكتمل الطبيعة بمعرفة الإنسان لها ، وان الإنسان يكتمل بمعرفته للطبيعة ، فهناك تعامل جدلي بينهما" . والطبيعة هي المكان الذي لم يصنعه الإنسان .

وجاء اينشتين بالنظرية النسبية لتربط المكان بالزمان وتظهر مفاهيم تتجاوز الاستيعاب الإدراكي الحسي لتظهر الحقيقة في معادلات رياضية جد مجردة و معقدة . فالمكان والزمان عنده لا يوجدان بنفسيهما معزولين عن المادة بل هما جزء من العلاقة المتبادلة المتشابكة الكلية التي يفقدان فيها استقلالهما وبييرزان كجانبيين نسبين للزمان والمكان المتكاملين اللذين لا ينقسمان . و ترى الفلسفة المادية أن لا وجود للحقيقة خارجهما (المكان و الزمان) . لذا فالوجود مرهون بالمكان والزمان .

أما الفيلسوف كانط (كنت) فيرى أن الزمان ليس تصورا كليا ، ولكنه شكل خالص للعيان الحسي . وذلك لأن المرء لا يستطيع أن يتصور غير زمان واحد وحدي ، أما الأزمنة المختلفة فليست إلا أجزاء لهذا الزمان ، وإذا كان الزمان واحد ، فهو لا يقبل أن يكون ذا تصور بل عيان . ويضيف " إن الأشياء في ذاتها لا تأتي إلى عقولنا كما هي دون تغيير ، بل لا بد أن تمر بهذا الإطار ، إطار الزمان والمكان ، فتترتب وفقا له ، فكأنما بمجرد أن تصبح مدركة ، لا بد أن تظهر على هيئة الزمان و (المكان) ، ونحن لا نعرفها كما هي في ذاتها ، بل كما تبدو لنا ولهذا فنحن لا نعرف إلا الظواهر" . ويجد أن المكان واحد فريد في جوهره ، والتعددية فيه تستند فقط على التحديات ، ويعني هذا أن المكان عنده حدس أولي ولا يتعدد المكان ذاته . وأن المكان ليس في الحقيقة لا متناهيا ، وهو يدور شأنه شأن سطح الكرة الأرضية . وخلافا عن الزمن ، فإن المكان قابل للانعكاس حيث نستطيع السير فيه باتجاهات متعاكسة ونستطيع العودة إلى نقطة البداية .

ويخلص إلى القول " إذا كان المكان والزمان ثابتين بالمعنى العام للوجود حيث المكان الذي لا يحويه مكانا إلا نفسه . أما الزمان فسائر بالوجود . وأن التغيير الذي يحدث ليس منهما ، وإنما من المادة القابلة للتغيير والانتقال ، إلا أن المادة لا تقوم بذلك لولا الحركة التي فيها ، إذن الحركة والتغيير هما سبب الإحساس والزمن .

وبإيجاز ، تستخلص السمات المبينة في أدناه من الجدليات ذات الصلة :-

• حجج المكان :-

- المكان ذو أبعاد ثلاثة ، أما الزمن فليس له إلا بعد واحد .

- يعبر المكان عن توزيع الأشياء الموجودة وجودا تلقائيا .
- يعبر المكان عن تتالي الظواهر .
- من الممكن تخيل لا شيء في المكان ، ولكن من المستحيل تخيل لا مكان .
- المكان ليس تصورا تجريبيا ، هو مجرد من التجربة الخارجية ، وذلك لأن المكان مفترض مقدما في دلالة الإحساسات على شيء خارجي ، والتجربة ممكنة فقط من خلال مثل المكان .
- المكان تمثل ضروري أولي ، يشكل الأساس لجميع الإدراكات الخارجية ، إذ لا يمكننا أن نتخيل أن ليس هناك مكان ، ومع ذلك يمكننا أن نتخيل اللاشيء في المكان .
- المكان ليس تصورا منطقيا أو عاما للعلاقات بين الأشياء بوجه عام ، إذ أن هناك فقط مكان واحد ، تكون ما ندعوه " أمكنة " أجزاء له وليست أمثلة .

• حجج الزمان :-

- يعبر الزمن عن تتابع الظواهر حيث تحل الواحدة محل الأخرى .
- الزمان لا يرتد ، بمعنى أن كل عملية مادية لا تتطور إلا في اتجاه واحد من الماضي إلى المستقبل .
- إن الحركة هي ماهية الزمان والمكان ، وإن المادة و الحركة و الزمان والمكان لا تنفصل عن بعض .
- بما أن المادة مرئية والزمان غير مرئي ، فهو ليس مظهرا من مظاهرها ، وإنما هو متطلب شرطي مستقل و متداخل لها ليس إلا .
- تأنيب الضمير يعبر عن عجز تجاه الماضي ، و هو في الوقت نفسه يعبر عن بعد التقدم .

• الزمكان :-

- مصطلح حديث منحوت من كلمتي الزمان والمكان ليعبر عن الفضاء رباعي الأبعاد الذي أدخلته النظرية النسبية ليكون فضاء الحدث بدلا من المكان المطلق الفارغ في نظرية الكم .

- والمصطلح ببساطة شديدة يعني السفر عبر الزمان والمكان في آن واحد .
- من خلاله جاءت فكرة السفر عبر الزمن ، لتمنح الإنسان أملا خياليا في تغيير حاضره و مستقبله ، بل وربما مستقبل العالم أيضا .

الإبداع الإنساني في المكان والزمان

درس كونار تورنكفست Gunnar Tornqvist مائة عالم نال جائزة نوبل ، ومن جنسيات مختلفة وفي أزمنة متباينة . درس سيرهم الذاتية قاصدا معرفة العوامل الموضوعية (البيئية) التي ساعدت على نبوغهم و تقدمهم على غيرهم في الأداء و الأفكار . لقد بحث عن ظروف المكان والزمان اللازمين للإبداع الفكري . لا أريد أن أخص البحث ، ولكنني اعرض أبرز ما جاء فيهم من نتائج :-

- بالنسبة للعديد من العلماء المميزين كان للمدرسة أهمية خاصة في حياتهم . فهم يتحدثون بحرارة عن كفاءة مدرسيهم الذين أيقظوا الاهتمامات فيهم وأثروا على تركيزهم في دراستهم اللاحقة . وكانوا يتحدثون عن المدارس بتخصص معين و طلب محدد ، لذا تحدوا قدرات الطلبة الآخرين بما فيهم الممنوحين هدايا و جوائز في تلك المدارس . إذن المدرسة كمكان تعلم وبمواصفات معينة كانت عاملا بارزا في الإبداع الفكري لهؤلاء العلماء . فمدارس المتميزين يمكن أن تكون أماكن نبوغ وإبداع وتتنافس يثمر الخير للبلد والعلم .

- إن بيئة الإبداع يجب أن ينظر لها مبدئيا كأماكن و مجاميع جذبت الكفاءات ضمن تخصص علمي محدد . وتأسست هذه التقاليد ، جزئيا ، نتيجة جذب الأماكن و المؤسسات ذاتها لأشخاص معينين ولفترة زمنية طويلة . وفي حالات محددة ، فقد احتاجت قوة الجذب هذه حوافز و دفعا من أشخاص من خارج الميدان التخصصي ، وكذلك المفكرين . وفي حالات أخرى ، فان قوة الجذب قد تأثرت بالبيئة حيث الفائض الاقتصادي و ظروف العمل الحازمة . وفي الأماكن حيث تتوافق هذه الشؤون فان الجذب يكون قويا بشكل خاص . أي إن مؤسسات علمية (بحثية) معينة قد شكلت أماكن جذب للأذكاء و المبدعين ليلتقوا ويتحاوروا و

يتعاونوا و يبدعوا . والمراكز والوحدات البحثية هي المقصودة ، إضافة إلى النوادي الخاصة برجال العلم و المفكرين .

- إن التعدد و التنوع يعززان العمليات الإبداعية ، بينما التشابه و التوحيد الأنسقي التجانس لا يعملان ذلك . والعديد من الأمثلة الموثقة قد أعطت انطبعا خاصا بان بيئة الإبداع في بعض الأوقات كانت عبارة عن فوضى . والملاحظة الهامة التي أخذت عن العملية الإبداعية و التجديد الشامل بأنهما يبدأان حيثما تتطابق الكفاءة المميزة و صلات حميمة م.ع حالة اللااستقرار و اللاضمان . وهناك الكثير عن تضمين كل عملية إبداعية ، وسواء أكانت معنية بالابتكار التقني أو تغيير جذري في البحث أو فن جديد ، تضمينها لما يمكن تسميته باللا استقرار البنيوي . و هذا اللا استقرار البنيوي يسهل عملية خروج الأفكار عن النمط الموجود و الضوابط الصارمة المحيطة بها . هنا جاء الزمن ، الزمن الصعب ، سيادة الفوضى والخروج عن المؤلف ، والحاجة لإثبات الوجود والخروج إلى العالم الذي أصبح بأمس الحاجة لشيء يبهره و يجعل أنفاسه تقف وروحه تستكين ، وبالتالي تتلاشى الفوضى . فالتنوع والتعدد مصدر قوة اقتصادية واجتماعية وحضارية ، ولكنه نقطة ضعف عندما يستغل لأغراض سياسية ذنيئة .

- الظاهرة المميزة في مختلف السير الذاتية تركيزها على أهمية البيت و المدرسة في إيقاظ و تطوير الطاقة الإبداعية عند الأشخاص . وبتتبع حياة مبدعين فرادا و ما توجيه سيرهم الذاتية ، فهناك حالات عامة تؤثر على جغرافية الإبداع . وهي : العلاقات حيث أدركتها جيدا الدراسات السابقة عن البيئات . و المعطى الجديد المضاف هو الفائض الاقتصادي ، و أهمية سماح البيئات المختلفة للبدائل و الفرص للخروج عن المؤلف في القيم و أنماط الأفكار . و الملاحظة الأخرى أن المناقشات و اللقاءات تسمح بتجمع الأشخاص المبدعين مع بعض و تشكيل أفكارا يمكن أن تقود إلى تجديد شامل . و بالختام فهناك سبب وجيه لتكرار القول : كيف أن عددا قليلا من مسارات حياة أشخاص يعكس التغيرات الجذرية في المجتمع الأكبر . نجد هنا المكان بأكثر من صيغة ، المنزل ، المدرسة ، أماكن اللقاء (نوادي

ومكتبات) ، وبالتالي انشغال هؤلاء المبدعين عن من سواهم بالعلم دون الانخراط بمسارات الفوضى السائدة في زمانهم .

مجرد تساؤلات

- هل أدركنا ماهية المكان ؟
- هل استوعبنا علاقتنا به ؟
- ما السبيل لتنميته ؟
- أليس التنوع مصدر قوة ؟ لماذا نسمح لأن يكون نقطة ضعف ؟
- هل يمكن أن تشع عن اللااستقرار و اللأمان الحاليين في وطننا ومضات إبداع تعيد الثقة وتطمئن بالنفوس الحائرة ؟
- أليس الحوار سبيل جيد لحل المشكلات والنهوض من الكبوة ؟
- أليس المسكن موضوعا جيدا للدراسة كمكان ؟
- أليست المدرسة بحاجة إلى دراسة كمكان ؟ لنعيد لها مكانتها وأهميتها .
- ألسنا بحاجة إلى الاهتمام بأماكن يلتقي بها من نأمل بهم خيرا و نحميهم من شذاز الآفاق ؟
- ألسنا بحاجة إلى مبدعين ينقذونا من محنتنا ؟ ولا أقول سياسيين و العياذ بالله .
- ألسنا بحاجة إلى مراكز و وحدات بحثية تجمع من يريد خدمة بلده بعلمه و يطور نفسه و بالتالي المؤسسات التعليمية في البلد ؟ ولا أقول الإبداع رغم انه الهاجس و المقصود .

موقع موسوعة ويكيبيديا (الزمكان) :-

<http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D8%B2%D9%85%D9%83%D8%A7%D9%86>

محمد بن علي المحمود ، التقليدي .. جدلية الإنسان والمكان ، جريدة الرياض
الخميس 21 رجب 1429 هـ - 24 يوليو 2008م - العدد 14640 ،

<http://www.alriyadh.com/2008/07/24/article361883.html>

الزمان والمكان شكلان من

<http://www.marxists.org/arabic/glossary/terms/11.htm>

بحث / الزمان والمكان عند كانط

سمير اسطيفو شبلا

<http://www.alqosh.net/ssh49.htm>

تأثير البيئة الطبيعية على شخصية الفرد العراقي

د . ندى موسى عباس

جامعة ديالى / كلية التربية

قسم التاريخ

المقدمة :-

كيف تؤثر نوعية التربة وطبيعة الجبال أو السهول وأصناف النباتات على شخصية الإنسان وما هو دورها في تشكيل نمط حياته وصياغة أفكاره وخلق حضارته ؟ وإلى أي حد يصل هذا التأثير في سلوكياته وردود فعله وصناعته للأحداث ؟ وما أهمية معرفة ذلك في الدراسات التاريخية وما قيمته العلمية ؟ وكيف يؤثر تباين الفروق بين سكان الجبال والسهول والصحاري والغابات والأنهار والبحار واختلاف المناخ على نفسية الفرد العراقي ؟ هذه الأسئلة وغيرها كثيراً ما ترد في ذهن الباحثة عند دراستها للأحداث التاريخية في العراق وهي تدرك تماماً مدى الحاجة الماسة والملحة إلى المعرفة الجغرافية الجادة لموقع وساحة ومكان الأحداث مما يسمى بالجغرافية التاريخية .

تحاول الباحثة من خلال تركيزها على تأثير البيئة الطبيعية في الناحية السيكولوجية للفرد العراقي معرفة دور التأثيرات البيئية في السمات العامة لشخصية الفرد العراقي ، مما يساعد في فهم نواحي عديدة من تاريخه الطويل والعريق ؛ وبرز دوافعه النفسية المسببة لثوراته وتمرداته الكثيرة التي عجت بها أرضه في مناطق معينة بينما عم الهدوء والسكون في مناطق أخرى ؟ وأجلاء الغموض عن الكثير من الحوادث التاريخية . لأن البيئة الطبيعية للعراق متنوعة فقد درجت الباحثة ملاحظاتها عن كل منطقة جغرافية من مناطق العراق المتنوعة على حدة فللمناخ والماء والتضاريس في كل منطقة تأثير مختلف عن بقية المناطق ولذا فإن العراق كما يحتوي أعراق و طوائف متنوعة وأديان ومذاهب مختلفة فإنه أيضاً يتنوع بسمات وشخصيات أفراد كل حسب ظروف منطقتهم الجغرافية ، وتبعاً لذلك تنوع المجتمع العراقي (الواحد في هذا البلد الواحد) ؛ وتنوعت شخصيات أفراد السيكولوجية والسيكولوجية والثقافية والحضارية ، والحديث هنا عن صفات عامة لأفراد كل حسب بيئته وموقعه الجغرافي ...

طرحت الباحثة أفكار البحث في العلاقة بين البيئة العراقية وشخصية الفرد العراقي من خلال التركيز على المسائل الثلاث المؤثرة في شخصية

الفرد العراقي والت . بي هي المناخ والتضاريس والمياه (الأنهار) وتنوعت الطروحات لهذه المسائل بحسب تنوع المناطق الجغرافية للعراق ، وقد استندت في أفكارها على ملاحظات وآراء الباحثين والعلماء والكتاب والصحفيين ، وبدأت ورقتها بإعطاء نبذة ممهدة عن أهمية تأثير هذه المسائل في شخصية عموم البشر .

التمهيد :-

لعل الباحث حسن عثمان هو خير من أوضح أهمية المعرفة البيئية في الدراسات التاريخية برؤيته إن تاريخ الإنسان يتوقف تبعاً ((لنوع تفاعله مع بيئته ومواجهته لظروفها فالسهول والجبال والصحاري والوديان والأنهار والبحار والخلجان والغابات والجزر... والرياح ونوع الثروة الطبيعية والموقع الجغرافي ...)) فكل ذلك يؤثر تأثيراً واضحاً على الإنسان في ((لغته ونبرة صوته وفي لون بشرته وعينه وشعره وفي أساطيره وأديانه وفي ملكاته العقلية وفي فكره وفلسفته وصوفيته وفي أدبه وفي موسيقاه وفي هندسته ومعماره وفي علمه وفي طبه ودوائه وفي رسمه وتصويره ونحته وفي خلقه وسيكولوجيته وفي مدنه وحقوقه وقراه وفي قوانينه وشرائعه وفي حرفه ومهنته وفي فقره وغناه وفي حياته السياسية والاجتماعية والاقتصادية وفي مذله وإبائه وفي سير معاركه وفي حربه وسلامه ...)) . (1)

إن الإنسان ومهما بلغت نجاحات التكنولوجيا لن يستطيع التخلص من تأثيرات البيئة الطبيعية إلا في حدود أضعافها أو تقليل نسبتها ، فهي على كل حال تدخل في صناعة حياته المادية والروحية والتغاضي عنها على كل حال لن يخدم البحوث والدراسات الاجتماعية والنفسية والحضارية فضلاً عن التاريخية ، ونؤيد ما ذهب إليه سليم مطر من إن تأثيرات الأرض الجيولوجية والتضاريس والمناخ وطبيعة المياه والحرارة وحتى الريح

والغبار لازالت حتى الآن تتحكم بالإنسان وتؤثر في الأفراد وطبيعة الش.عوب. وهي تتراكم عبر ميراث أجياله رغم كل الثورات التقنية . (2)

ترك العلماء والمؤرخون العرب المسلمون والغربون ومن الكتاب والباحثين قداماء ومحدثين ومعاصرين عددًا غير قليل من النظريات والآراء في تأثير البيئة الطبيعية على حياة الإنسان وبنيته ولا تزال هذه النظريات تمثل الأساس في الكثير من البحوث والدراسات في المجالات المتنوعة ، فعلى سبيل المثال نظرية ابن خلدون بتأثير العامل الطبيعي في توجيه نشاطات الإنسان بمجالاتها الاجتماعية والعمرانية ، فضلاً عن دوره في تحديد ألوان البشر وأحوالهم وأخلاقهم (3) وإشارة ابن المقفع إلى تأثير البيئة في تكوين اللغة العربية ودورها في تطوير طباع وسجايا العرب وواقفه الفارابي هذه الرؤية ؛ فأرجع الخلق والشيم الطبيعية إلى أثر البيئة والموقع الجغرافي وما يتصل بذلك من مميزات في الهواء والحياة وأنواع النبات والحيوان . (4)

يمكن القول هنا إننا إذا ما حللنا تأثيرات البيئة الطبيعية يصبح من الممكن فهم المميزات العامة للشعوب وتحديد النظم والقوانين الملائمة لها؛ فمونتسكيو مثلاً يعتقد إن المناخ هو السبب الرئيسي في تشكيل المميزات الفيزيائية والحضارية للمجتمعات المختلفة ، (5) كما إن الفروق بين الأجناس ترجع لتأثير البيئة الطبيعية على الإنسان نفسياً وعضوياً وذلك وفقاً لما يؤكداه العالم الألماني هردر . (6) كما يمكن تبين مدى تطور المجتمع وتنميته بملاحظة مدى التفاعل بين الإنسان وبيئته الطبيعية التي يراها ، وفي هذا الخصوص نعتبر كتاب المدينة والمناخ للعالم الأمريكي هنتوكت من البحوث الجديرة بالاهتمام ، فهو يعتبر المناخ وحده كعامل يقرر نوعية وكمية مدنية كل مجتمع من المجتمعات في جميع المجالات (7). وعموماً فإن النظم الحضارية هي استجابة ميكانيكية لبيئة الإنسان الطبيعية وهي

التي تمده بالمادة والروحية التي تتطبع بتأثيره ، ومع إن موضوع العلاقة بين الإنسان والبيئة قدي م ومنذ عهد النهض ة الأوربية ، (8) وكذلك مسألة الربط بين البيئة وصناعة الحضارات ، إلا إن جمال حمدان قدم لنا بعداً جديداً للعلاقة بين الإنسان والطبيعة في المكان والزمان فهو ينظر لها بشكل متوازن فلا يبحاز إلى طرف على حساب الآخر ، ففي رأيه إن العلاقة بين الإنسان المصري ونهر النيل مثلاً هي التي أدت إلى صياغة الحضارة المصرية على الوجهي ن المادي والروحي ... (9) والبعض من الفلاسفة منهم توركو أعتبر الحضارة ما هي إلا تفاعل العوامل الجغرافية والحياتية والسيكولوجية . (10)

إن درجة التفاعل بين الإنسان والبيئة تزداد كلما زادت المعرفة الإنسانية ودقة التنظيم الاجتماعي في محاولاته لتخفيف أثر الطبيعة عليه ، وفي كل الأحوال لن تعمل العوامل الطبيعية تأثيرها في الإنسان بشكل منفرد إنما تكون ملازمة للعوامل البيولوجية وهما يعملان معاً ولكن بخطين مستقلين ومتوازنين فلا البيولوجية تلغي عمل الأولى ولا الطبيعية تطغى على الثانية ، وثمرة عمل الاثنين تظهر في السمات (الصفات) الشخصية للإنسان) مزاجه وسلوكياته وسكناته ونشاطاته وقدراته الذهنية والفكرية وطريقة معاملته لنفسه (التي تميزه عن غيره قليلاً أو كثيراً ما لا يمكن أن يشبهه في ذلك إنسان آخر إلا نادراً . وفي ذلك فإننا نذهب مذهب توينبي في كون جميع العوامل البيولوجية وعوامل البيئة لا يمكن أن تعمل كل بمفردها فهي كل متعددة وليست كلاً مفرداً ، ومع انها لا يملكان عوامل مشتركة إلا إنهما ينظ افران ليعملا بتناغم واتساق متكاملين فيؤلفا نمطاً من العلاقات بينهما ، (11) ونرى أن هذه العلاقات المتأثرة بخصوصية البيئة الطبيعية والاجتماعية تخرج لنا بميزات تقرر الاختلافات بين الشعوب .

الشخصية العراقية والبيئة الطبيعية :-

في تصورنا إن العراقي ابن بيئته متجانس معها متشكل على نسقها متكيف مع ظروفها ، يعمل متحداً معها لا متحدٍ لها وحضارته هي نتاج انسجامه السيكولوجي معها ؛ فبيئته قد وفرت له إمكانيات لعيشه مريحة وسهلة ولكنه السهل الممتنع ! فهذه البيئة مشكلتها إنها متقلبة تخبيء له الكثير من المفاجأة المنغصة التي تجعله يعيش في ضغط نفسي ما بين كدرٍ وسرور ، أي لابد لنيل العسل من أبر النحل ومن المؤكد إن ذلك ترك أثره الواضح في شخصيته ، وهذا التصور متأني من وحي نظرية توينبي في الاستجابة والتحدي إذ تكون البيئة هي المسيطرة على الإنسان وعليه أن يحصل على بعض المهارات التي تمكنه من تحدي ظروف بيئته الطبيعية .⁽¹²⁾ ونحن نرى هذا التحدي هو نوع من التأقلم ومحاولة غير مباشرة للانسجام مع واقع البيئة ، وعادةً ما يكون هذا التأقلم نسبياً مع الظروف المتنوعة للبيئة .

يقع العراق عند أبن خلدون في الإقليم المعتدل الوسط بين المنطقة الحارة والباردة ، ولذلك فهو في أفضل المناطق لحياة الإنسان ولحضارته ، وإن ((مناطق العرب هي في الأقاليم المعتدلة وسكانها من البشر أعدل أجساماً وألواناً وأخلاقاً وأدياناً حتى النبوءات فإنما توجد في الأكثر فيها ولم نقف على خبر بعثةٍ في الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية وذلك أن الأنبياء والرسل إنما يختصُّ بهم أكمل النوع في خلقهم وأخلاقهم يتم القبول بما يأتيهم به الأنبياء من عند الله ((كنتم خير أمة أخرجت للناس)) ويستمر في وصفه لهذا الاعتدال بقوله ((فهم أكمل لوجود الاعتدال لهم فتجدهم على غاية من التوسط في مساكنهم وملابسهم وأقواتهم وصنائعهم يتخذون البيوت المنجدة بالحجارة المنمقة بالصناعة ويتناغمون في أسجادة الآلات والمواعين ويذهبون في ذلك إلى الغاية وتوجد لديهم المعادن الطبيعية من الذهب

والفضه والحديد والنحاس والرصاص والقصدير ويتصرفون في معاملاتهم بالنقددين العزيزين ويبعدون عن الانحراف في عامة أحوالهم وهؤلاء أهل المغرب والشام والحجاز واليمن والعراقيين والهند والسند والصين وكذلك الأندلس ... ومن كان مع هؤلاء أو قريباً منهم في هذه الأقاليم المعتدلة ولهذا كان العراق والشام أعدل هذه كلها لأنها وسط من جميع الجهات (13)

تقسم البيئة الطبيعية العراقية على ثلاثة أقسام فبيئة جبلية وشبه الجبلية وتضم المحافظات الشمالية : السليمانية وأربيل وزاخو ودهوك والموصل وكركوك وتكريت، وبيئة سهلية منبسطة ورسوبية لها امتداد من الغرب في البادية الصحراوية وشبه الصحراوية والجزيرة (مابين دجلة والفرات) ، وبيئة منبسطة اعتبرناه مركز الوسط : بغداد وديالى ، وبيئة تنوعت بين منطقة صحراوية ومنطقة شواطئ النهرين وسواحل الخليج فهي تمثل محافظات الوسط والجنوب : الأنبار ويايل وواسط والنجف وكربلاء والديوانية والمثنى وميسان وذي قار والبصرة .

لقد صنعت لنا البيئة العراقية المتنوعة هذه مهن معينة كل حسب منطقتها البيئية وطريقة الري فيها ونوع المحاصيل المزروعة وبالتالي فان ذلك يعني شخصيات متنوعة في السلوكيات والتفكير والاهتمامات والنظرة للحياة وقيمها كالمال والكرم والبخل ونوع الملابس وأسلوب العيش وغير ذلك ...؛ فضلاً عن الاختلاف في البنية الجسمانية ؛ فمزارعي الفواكه والتبغ في الشمال لهم نمط من الشخصية مغاير لنمط شخصية مزارعي الفواكه من فلاحي البساتين في بغداد وديالى ووسط العراق والبصرة ، كما تختلف بالتأكيد عن نمط مزارعي الحنطة والخضروات في السهول والوديان وعن نمط مزارعي الشلب في مناطق الفرات الأوسط وعن رعاة الإبل والأغنام في البوادي والصحراء وكل هؤلاء يختلفون عن نمط سكان الأهوار مع إن

الجميع لهم خصائص وسمات مشتركة عامة كهوية عراقية ومؤثر بيئي موحد متمثل بنهري دجلة والفرات (14) .

المنطقة الشمالية :

إن منطقة شمال العراق أرض معطاء جميلة خلابة تشكلت من الجبال والوديان والغابات والشلالات والسهول الرسوبية الخصبة وترتبتها الجيدة ومياهها الوفيرة ونباتاتها المتنوعة كل هذه الرفاهية غير المحدودة انعكست بوضوح على شخصية سكانها فقد تميزوا بالصدق والذكاء والقوة والشجاعة والجرأة والصبر واحترام الغير وحب العلم وقد برز منهم أسماء لامعة نذكر منهم المشاهير المؤرخ أبين الأثير واخوته وأبن خلكان ومحمد كرد علي وغيرهم في مجال السياسة والنشاط العسكري كثيرون إذ كانت القوى الحاكمة في العراق تفضلهم كمقاتلين في جيوشها خاصة وبشكل واضح في عهد الخلافة العباسية ، أما الروح المرحة فما أراها إلا انعكاس لجمالية المنطقة التي أعطتهم صفاء في الروح وطمأنينة في النفس ، ونفترض أنهم على الدوام قوة في الصراعات التي يشتركون فيها ؛ ولكنهم لا يصنعوها على أية حال ، كما إن حضارتهم تستند إلى ما تجود به بيئتهم وهي الغنية خاصة من ناحية فن الألوان فانعكست بملابسهم الفلكلورية ذات ألوانها الزاهية البهيجة ، والأصالة في الحرف اليدوية وطرق تخزين المواد الغذائية للشتاء البارد والطويل . . .

وما نراه هو اعتقاد قديم فكل من هيبوقراط (الجو والماء والأقاليم) مونتسكيو (روح القانون) يرون أن سكان الجبال ذات المناخ البارد والأمطار الغزيرة يتصفون بالطباع الحميدة ونقاء النفس والقوة الجسدية والشجاعة ، و أما سليم مطر فنجدّه يشير إلى إن سكان المنطقة الشمالية يسود بينهم نمط البحر المتوسط حيث الرأس الدائري المربع وهو نمط الآسيوية (القفقاسي والأناضولي والإيراني والكردي والتركتستاني) وللبيئة الجبلية تأثير في تقوية عضلات الأرجل ، (15) وهم يميلون إلى

الصرامة والحدز والروح العملية والحربية فحضارتهم خير شاهد الآشورية إذ تمثل الإله آشور إله الحرب والقوة وغيره من التماثيل التي تجسد صور البطولة والمعارك الحربية الشامخة وفي العهدين العثماني والملكي ظهر واضحاً سيادة الروح العسكرية بين عامتهم ، (16) وتمنح الجبال والتلال والهضاب عادةً نوع من العزلة تساعد الناس في الحفاظ على أصالة لغتهم وتراثهم وخصائص شخصيتهم حيث يتحدد اختلاطهم فضلاً عن صفاء ذهنهم ، كما تحدد طبيعة الحياة بالجبال شكل أجسامهم ، ومع كل ذلك فإن لهم خصوصية تجمعهم مع باقي العراقيين (17) .

العاصمة بغداد :-

تميزت بغداد بموقعها الجغرافي الوسط بين البيئات الطبيعية العراقية ؛ تتصل بالشمال والجنوب بنهر دجلة وقربها من نهر الفرات منحها اتصالاً بالوسط ؛ فأصبحت وسطاً حضارياً وسياسياً واجتماعياً ؛ فهي تمثل كل العراقيين في الدولة فأهلها يجمعون بين صفات البيئات الطبيعية ومميزات الأفراد، وكان منتهى الذكاء من أبي جعفر المنصور وخياراً مناسباً لكل العصور ، ولعل هذا هو سر نجاح العباسيين في عهدهم الأول ؛ فبغداد مجمع الأسواق ومركز تجمع الأفراد من مختلف البيئات والذين ما يلبثوا أن ينصهروا في مجتمعها المتنوع المفتوح، ومحفلها الثقافي والسياسي والاجتماعي أعطى لسكانها من الناحية السيكلوجية بعداً ايجابياً مثيراً ومنشطاً منحهم روحية الإبداع الحضاري ، مع ما يتخلله من جدل وخلاف

وتوتر وصراع . إن هواء بغداد نقي وماءها عذب وتربتها خصبة فحضرتها
 وافرّة وهذه عوامل ترق الطباع وتفتح القرائح فهذا شاعرنا علي بن الجهم
 يقدم على الخليفة المتوكل العباسي فيمدحه بقصيدة ملؤها صوراً من بيئته
 الصحراوية الخشنة الجلفة ،فما كان من الخليفة إلا أن أسكنه في أحد
 قصوره ببغداد ليتحول بشعره ب . عد مدة إلى ش . اعر يقطر رقة وعذوبة في
 أوصافه ومعانيه وتصويره⁽¹⁸⁾ .

منطقة ديالى :

هي منطقة بساتين على الأعم الأغلب وقد ساعدها في ذلك نهر
 ديالى القادم من منطقة جبلية مرتفعة على إن أهم خاصية به هو إنه
 ينخفض بمستواه تدريجياً فينسب بهدوء لتخرج منه قنوات عالية تصلح
 لإسقاء البساتين سباحاً وفي الوقت نفسه فإن نهر ديالى التي أخذت المنطقة
 تسميتها منه هو ميزل للبساتين إذ تصب فيه المياه المتبقية منها . ويلاحظ
 إن مجرى الأنهار الأخرى كخريسان وغيرها كانت ثابتة على الدوام وهذا
 ضمن لمدنها القدم فلم يطرأ عليها تغيير كبير من حيث مواقعها وأسماءها
 فغدت محطات آمنة في فترة الحوادث التاريخي .ة التي كان يمر بها العراق .
 وإن هذه الميزة أضفت على شخصية سكان المنطقة طابع الهدوء فلا
 مفاجئات ولا كوارث ولا قلق من مشاكل طبيعية فمالوا إلى الدعة والوداعة

والمهادنة والطمأنينة والسكينة (حد الجمود في أحيان) والتفاؤل والوسطية وحب الحياة وطول البال .

منطقة الوسط والجنوب :-

المنطقة الرسوبية وسط وجنوب العراق هي كما يعتبرها علي الوردي - البودقة الرئيسة - ففيها تبلورت شخصية الفرد العراقي التي تميز بها بشكل عام فهي موطن أقدم الحضارات العالمية وهي - منطقة السواد - التي رآها العرب المسلمين مزدهمة بالخضرة والزروع والسكان ، وهي - مخزن غلال العالم - كما يحلو لبعض الباحثين وصفها لذا نجدتها الأكثر ازدهاما بالأحداث التاريخية مليئة بالحياة الصاخبة لا تعرف الهدوء أو الدعة ، مع كل ما تحتويه من غنىٍ ولذلك أسباب وإذا عرف السبب بطل العجب !

إن أرض نهري دجلة والفرات شديدة الانحدار وهذا هو سبب قوة جريانها وخاصة نهر دجلة (خمسة أقدام في الميل الواحد) فلها قدرة عالية وكبيرة على كسر السدود واجتياح الأراضي الزراعية المجاورة والجريان بقوة شديدة تستطيع بها أن تحدث كارثة بتكسر السدود واجتياح الأراضي الزراعية المجاورة ، كما إنهما يرتفعان بدون سابق إنذار وسلوكهما دائماً مفاجئ ، أما فيضانها في آذار ونيسان وأيار وهو موسم متأخر جداً بالنسبة للزروع الشتوية ومبكر جداً بالنسبة للنباتات الصيفية ، وإنهما رغم عدوية مائهما ينتهيان بكثير من الطما والأملاح المحلولة لأنهما يجريان بين صحاري جبيسه وأراض مالحة ،⁽²⁰⁾ وهما في تبدل مستمر بخط سيرها إذا لم تكري من كميات الغرين التي تترسب في قعر مجراها ، وهو كثيراً ما يحدث عبر مراحل التاريخ بسبب الاضطراب السياسي أو ضعف الحكومات ، مما يعني توالي اندثار في مدنها لتظهر

مدن جديدة أو تظهر الأهوار ، ويرافق ذلك أيضا ظهور الأراضي السبخة (الأراضي المالحة) بسبب غمرها بالمياه وما تتركه هذه المياه من ملوحة وهي مشكلة زراعية كبيرة تحتاج دائماً إلى كربي الأنهار وإصلاح الأراضي وتنظيم الري .

عند السفر بين بعض المحافظات تبرز لسكان المدن في طريقهم أراضي قفر جرداء وكأنها من أطراف الصحراء ثم فجأة تقفز أمامهم البساتين والخضرة المحاذية للأنهار وهكذا الأمر كلما أرادوا السفر يعانون من برد شتاءٍ قارص ومن حر صيفٍ قائل ، هذا الأمر انعكس على نفسية العراقي في الانتقال من حالة إلى حالة فهو في تغير مستمر وتلون لا يعرف الاستقرار والثبات ، أما سكان الصحراء أو أطرافها فتعودوا على طرق واحدة في الصحراء إذا ما غيروها تعرضوا للمخاطر أو الهلاك فهم يسلكون طرق أجدادهم لا يغيروها لأنها بنظرهم توصلهم إلى الواحات والعيون انعكس ذلك في عقلهم الباطن فهم متشددون في الآراء ويخشون التجديد في أي ميدان من الميادين حديون ويتعاملون بقسوة .

يعتقد الكثيرون إن الشخصي . العراقية هي شخصية خلافية متناقضة (21) وفي نفس الوقت فهي شخصية ذكية يقظة نشطة حماسية تمجد القوة لا يفوتها الانتباه إلى العواقب وأن كانت تهدر الكثير من طاقاتها هذه في سلبات اجتماعية ، إن الطبيعة العراقية لم ولن تعطي العراقي شعور بالطمأنينة فهي متقلبة غير مستقرة وبالتالي ليست جامدة تتغير بسهولة وبسرعة وهذا لن يمنحه الهدوء أوالمهادنة ولا التفاوض والوسطية ، وهذا هو السر وراء ثوراته وعدم مسالمتة للحكومات ، وهو في ذلك مختلف تماما عن شخصية أخيه المصري . (22)

يقول المراتي إن الشخصية العراقية هي شخصية ((قلقة مضطربة متطرفة حذرة ولكن قلقها وادع واضطرابها اضطراب منتج واستجاباتها

استجابات مبدعة وتطرفها قاس لا يعرف الوسط أما ثورة وتمرد وعصيان أو خضوع وسكون وخنوع على أن هذه السمات والصفات والقدرات لا تبدو على وتيرة واحدة عند كل الأفراد نظراً للعوامل الأخرى البيولوجية والنفسية والاجتماعية ...)) . (23) ويتساءل الكثيرون عن غلبت العصبية والتوتر في مناقشات العراقي وعدم مناقشته الأمور في هدوء وروية دون أن يفقد صبره وينفعل ويسب ويكفر ويخون ؟ ولماذا لا يقلل من سرعة رده وتفريطه في الغضب والانفجار العاطفي المدمر وتقلبه المفاجئ من المباركة المفرطة إلى اللعن المنهمر كالشلال ؟

يعتقد الجيزاني إن ميل العراقي إلى العنف والتعصب في حل أغلب نزاعاته لها أسبابها لعل من أبرزها الطبيعية والمناخية ، (24) وعلى العموم نرى إن هذه الظاهرة يشترك بها العراقي مع الكثير من أفراد المجتمعات المجاورة لبلده ؛ (25) فالملاحظ إن في مراحل الانتقال بين الفصول الأربعة يكون هناك اتساع حراري ما بين ارتفاع شديد وانخفاض شديد .

نؤيد تماما ما يراه سلام عبود من إن الوردية خلط في نظريته العوامل النفسية بالبيئية وهو ما تسبب في التداخل بين الأسباب والنتائج)) المتعلقة بسلسلة الأفعال والنوازح)) ؛ فالغضب والحقد واستسهال امتهان الضعيف إلى حد السخافة وتمجيد القوة صفات سلوكية وتعبيرات نفسية ، لا تخلق الازدواج بل ترافقه وتعمقه وهي أعراض تشير إلى الازدواج الأساسي ، وهنا يظهر تنازع الشخصية بين قطبين)) العنف وكل ما يرافقه من مشاعر متنوعة ؛ الانفعال السريع الغضب ، التكبر ، المفاخرة الكاذبة ، الصلف التحجر العقلي والحقد واللؤم والخضوع وما يرافقه من أحاسيس ونوازح الكبت التي زلف الكذب المصطنع النفاق)) وهنا نلاحظ إن)) النقيضين يقودان من منطلقين نفسيين متعاكسين إلى نتائج سلوكية متشابهة ؛ الميل إلى اللؤم والحقد وفقدان الثقة بالآخرين ، مقروناً بالعنف والتلذذ بالضعيف واستسهال الإيذاء

والإسراف في الطموح في الصنف الأول وفي الثاني مقروناً بالخنوع والميل إلى المصانعة والوشاية والتشفي والانتقام والاعتماد على الغير والإسراف في الخيال)) (26) .

أمتهم الكثير من سكان المحافظات الجنوبية إلى عهود قريبة مهنة رئيسية هي الزراعة وكانت البيئة هي السبب وراء هذه المهنة فوجود مساحات الأراضي المنبسطة المفتوحة الصالحة للزراعة وتوفر الموارد المائية والمناخ المناسب للنمو ، وقد تكيف الكثير من البدو على مهنة الزراعة ممن فضلوا السكن في المدن وتركوا حرفةهم التقليدية الرعي (27) ، ولوحظ أن بشرتهم تغلب عليها السمرة المتأثرة ببيئة منطقة الخليج والمحيط الهندي وحيث الرأس المستطيل ، ويعتقد سليم مطر أنهم يميلون إلى اللين والارتخاء والروح الخيالية والدينية (28) ، كما ثبت من قرون هيبوقراط إن سكان الأقاليم المكشوفة الجافة يتصفون بنحافة القامة وحب التحكم ، أما مونتسكيو فيرى إن أهل هذه المناطق يميلون إلى النظام الملكي !! وإذا وقع عليهم حيف أو ظلم فأنهم قد يتوقعون ليحمون أنفسهم إلا إنهم سرعان ما ينتفضون لينتصروا لأنفسهم (29) .

تعد منطقة البصرة أعظم مزرعة للنخيل والذي ساعدها هو مد وجزر الخليج العربي في سقي البساتين سيحاً (مداً) وكان الجزر هو مبرل يصفبها من الأملاح قليلاً أو كثيراً ، أثرت فيها أكثر بكثير من تأثير النهر والبساتين على أهل ديالى ، كما ترك شط العرب (ملتقى النهرين) تأثيره على البصرة بشكل واضح فهي نهريّة بحرية (عراقية خليجية) فأهلها يميلون إلى تذوق المغامرات البعيدة المرتبطة بالتجارة وحب الرحلات الاستكشافية ، ومن تراثها قصص السند باد البحري أو البري ، وما سجله الكتاب العرب المسلمين في وصف حالة التغرب عندهم في الأصقاع النائية لفترات طويلة بسعيهم في التجارة ؛ فتجارهم أغنى التجار والأكثر حيوية

ونشاط ؛ وفي ذلك يقول الجاحظ وهو من أهلها : ((ليس في الأرض بلدة واسطة ولا بادية شاسعة ولا طرف من أطراف الدنيا إلا وأنت واجد به البصري ...)) (30) ، وقد عرفوا بسبب ذلك بشدة الترحيب بالغريب والحفاوة به وبإكرامه، ومن تأثيرات النهر (أو البحر) يعتقد إن امتنانهم لحرفة صيد السمك تصبح عندهم قوة في عضلات أيديهم (31) ، ومن صفاتهم السلوكية التي يمكن ملاحظتها إ بالقياس من تفسير ابن خلدون لأثر المناخ في طبائع الشعوب أن ارتفاع درجات الحرارة تجعل الناس يصبحون أسرع فرحاً وسروراً وأكثر انبساطاً وطرباً(32) .

على منطقة الأهوار وقف الرحالة غافن يونغ حائراً في وصف إنسانها ((وطبيعتها الجغرافية وامتداداتها التاريخية إلا إن مجمل حصيلة كشوفاته التي توصل إليها من عيشه الطويل فيها وتعمقه في دراسة ظروفها قد سجلت عوامل التكوين النفسي والفكري لسكان الأهوار في ثلاث مجالات وهي الجغرافية والتاريخ والواقع الراهن ...)) ويستمر في حديثه عن عرب الأهوار بأنهم شجعان في الأزمات وعندهم نوازع تحدي الخطر الذي نتج عن البيئة الطبيعية (33) .

الهوامش

1. منهج البحث التاريخي ، دار المعارف، القاهرة ، ط 7 ، 1996 ،

ص 33 .

2. مطر ، سليم : مقالات في الهوية (الحوار المتمدن) ،

Salim@Salimmatar.com العدد : 666 ، 2003/11/28 .

3. ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد : مقدمة ابن خلدون ، دار أحياء التراث العربي ، بيروت ، د. ت ، ص 82 .
4. مكي ، يوسف : جدلية الجغرافية والتاريخ ، مجلة الخليج الإماراتية ، الخميس 6 / آذار ، 2008 ، المركز الإعلامي لجماعة الأخوان المسلمين في سورية ، 2008/4/16 .
5. م . ن والموقع .
6. شكاره ، عادل عبد الحسين : نظرية هوبهاوس في التنمية الاجتماعية وتطبيقاتها على سياسة تنمية المجتمع العشائري في العراق ، مطبعة دار السلام ، بغداد ، 1975 ، ص ص 228 - 229 .
7. م . ن والصفحات.
8. م . ن والصفحات.
9. الكبرتي، عبد الستار : قصة الإسلام ، إسلام أون لاين نت 2001/4/19-20 / / 2007 webmaster@islamstory.com ، جغرافيون ، جمال حمدان ، الثلاثاء ، 20 / نوفمبر / 2007 م .
10. شكاره : م . س ، ص 426.
- كاشف ، سيدة إسماعيل : مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه ، مطبعة السعادة ، مصر ، ط2 ، 1976 ، ص 39 .
11. إسماعيل ، محي الدين : توينبي ، وزارة الأعلام ، بغداد ، بلا رقم طبعة ، 1977 م ، ص ص 53 - 62 ، صرهي ، أحمد محمود : في فلسفة التاريخ ، دار المعرفة الجامعية ، مصر ، بلا رقم طبعة ، 2000 م ، ص ص 267 - 275 .
12. ابن خلدون : م . س ، ص 85 .
13. عبود ، سلام : مقدمة لدراسة الشخصية العراقية ، moilto: Salam333000@ yahoo. Se ، الحوار المتمدن ، العدد : 1766 ، 12 / 2006 / 16 .

14. مطر : م . س . والمكان .
15. م . ن . والصفحة .
16. م . ن . والصفحة .
17. ديوان علي بن الجهم
18. مطر : م . س . والمكان .
19. عبود : م . س . ونفس المكان .
20. المهدي ، محمد : الشخصية المصرية ، 26 / 3 / 2007 .
21. حميد، علاء : إشكاليات بناء النسق الايكولوجيفي ، العراق اليوم ، أفاق إستراتيجية ، Thursday/ JUL/07 ، ص ص 1-7 .
22. كاظم : التسامح في المجتمع العراقي ، النبأ ، جمادي الأول ، العدد 72 .
23. م . ن . والمكان .
24. عبود : م . س . والمكان .
25. السرجاني ، راغب : الجغرافية ، الحضارة العلمية ، موقع قصة الإسلام ، 1 / 5 / 2006 .
26. مطر : م . ن . والمكان .
27. م . ن . والصفحات .
28. م . ن . والمكان .
29. التجارة ، ص 79 .
30. مطر : م . س . ، ص ص 5 - 6 .
31. ابن خلدون : م . س . ، ص 86 .
32. لازم ، عبد العزيز : العودة الى الأهوار ، محاولة لدراسة شخصية ساكن الأهوار العراقية ، الزوراء ، 7 / 4 / 2008 .
33. ممكن مراجعة عدد آخر من المراجع التي لم تسعها الهوامش مثل : الوردية ، علي : دراسة في طبيعة المجتمع العراقي ، منشورات سعيد بن جبير ، قم المقدسة

، ط 1 ، 1426هـ / 2005 ؛ مزيري ، شعبان : جماليات الطبيعة في كردستان العراق وأثرها في الرسم العراقي المعاصر ، موقع منتديات كرد ميديا .